أسئلة إلى «الآداب»

بقلم مجاهد عبد المنعم مجاهد

اذا كانت مجلة « الآداب » قد واكبت الثقافة العربية المعاصرة في مرحلة الصعود ، واستشرفت مبكرا آفاق هذا الصعود ، فماذا ستفعل الاداب بعد ان انقضى ربع قرن من عمرها وعمر المجتمع العربي في الحقبة الراهنة ، والثقافة العربية الاكثر معاصرة تمر بدور التدهور والانحلال ؟ واذا كانت الآداب قد فتحت صدرها في مستهل عمرها للفكر الوجودي والذي جوهره كيف يصنع الانسان مصيره بنفسه وانه عامل مهم في موقفه وتغيير المصير ، فهل ستمارس الآداب الدور الوجودي بأن تضع وجودها هي الان موضع التساؤل وتحاول ان ترد على السؤال الذي حتما يواجهها . الى اين المصير ؟ هل ستواصل الاداب تقديم الفكر الجديد وكشف اشكال التزييف الفكري للأخذ بيد الانسان العربي المحاصر في اواخر السبعينات وترسم له آفاقا جديدة لمشاكله الوطنية والاجتماعية والحضارية ، وهي مشاكل لم يعشها على هذا النحو الحاد جيل الخمسينات عندما بدأت الآداب صفحاتها المشرقات ؟ ام انها ستكتفى باجترار ماضيها وان تكون كل رسالتها مجرد الصدور ؟

ان تعلو الآداب في كل عدد على أعدادها السابقة ، هكذا كان شعارها : وهو الشعار الذي طبقته فجعل منها المجلة التي يمكن ان يقال عنها انها الوحيدة التي تعد مرآة صادقة لجيل كامل من الفكر في الوطن العربي في فترة ازدهار الانسان العربي وهو يصنع المصير .. وكان هذا هو الذي جعلها — ايمانا منها بوحدة المعرفة والتجربة الانسانية — تفرد جانبا — بجانب الادب للفكر الفلسفي وخاصة الوجودي منه الذي وجد صدى ممتازا لان الانسان العربي كان يعيش في قمقم التقاليد البالية والقيم الضيقة الافق ، فجاءت الوجودية في الآداب علما يلوح له بأنه قادر على صناعة المصير وان الانسان موقف وعامل مهم في هذا الموقف . وفي الوقت نفسه استشرفت الآداب البعد الاجتماعي فكانت ان قدمت الفكر الماركسي سواء بالتأييد او بالاعتراض انطلاقا من خياراتها الوجودية نفسها . واحست بحاجة المواطن للفلسفة العلمية فطرحت فكر راسل ولاسكي ولوى دي بروي وهكسلي . وفي هذا الصدد جاءت كتابات زكريا ابراهيم ورينيه حبشي وجورج طرابيشي ومحمد عبدالله مرحبا ومطاع صفدي وعبدالله عبدالدايم وعبدالله القصيمي .

وارادت الآداب ان تنقذ النقد الادبي من حالة الجمود التي وصل اليها ففتحت ابوابها للنقد الجديد وشهدت كتابات انور المعداوي ذروة الاصالة وهو يخوض معارك النقد النفسي والالتزام ويندد ويفضح اشكال الفن الزائف والدعائي مثل « أرض » عبد الرحمن الشرقاوي . وشهدت الآداب مولد النقد التذوقي الممتزج بالفكر يكتسب بعدا اجتماعيا على يد رجاء النقاش ترافقه كتابات عبد الجليل حسن وعبد المحسن طه بدر ، وشهدت أيضا تنظير حركة الشعر الجديد يولد على يد نازك الملائكة وخصومها لصالح حركة التجديد . وشهدت كذلك معارك رينيه حبشي ومحمود امين العالم ونجيب سرور لوضع معايير نظرية وتطبيقية جديدة .. ثم شهدت الساحة النقدية — وكانت ساحة هامة وساخنة — بعد هذا — لبنات جديدة من النقد الاجتماعي القائم على التحليل ، لا الشعار ، لدى سامي خشبة وصبري حافظ بالذات ، مع استبعاد تهريجات غالي شكري القائمة على التهويمات وخطف الثقافة كيفما اتفق .

ولقد واكبت حركة النقد الجديد في الآداب حركة علم الجمال وفلسفة الفن وطرح الاسس النظرية الجديدة في مجالات الشعر والرواية والمسرح وهذه الدراسات الجمالية طرحت لاول مرة في الوطن العربي بشكل عميق على صفحات الآداب .. ولم يقتصر الامر على الصراع الاجنبي فقط بل التنظير لواقعنا الادبي المعاصر ، ومن هنا جاءت الاعداد الممتازة عن الشعر والقصة والاتجاهات

الفلسفية المعاصرة وأدب المقاومة وهي وثائق لا يقتصر دورها على التسجيل ، بل تعد استشرافات ساهمت في خلق جيل كامل من المبدعين تفتح في الستينات . بل يكاد يعد هذا الزاد الفكري التراث الثقافي الوحيد الذي يعتمد عليه ادباء جيل السبعينات الذي قد يساعدهم على فهم الآفاق البعيدة للفكر الجديد لكنه ووحده بدون الملم بالتراثين العربي والعالمي لم يصنع منهم أدباء كبارا .

وقد قدمت الآداب في مجال القصة بالذات الادب الوجودي في دور التطبيق ، وخاصة عند سهيل ادريس ووحيد النقاش وزكريا تامر وعبد الغفار مكاوي ، وكان للآداب فضل تقديم القصة الفلسطينية وخاصة عند غسان كنفاني ، وفتحت المجلة صدرها للقصة الاجتماعية وفرسانها كثيرون على رأسهم سليمان فياض وأبو المعاطى ابو النجا وغالب هلسا وياسين رفاعية وفاضل السباعي وحيدر حيدر وديزي الامير وعبد الرحمن فهي .

اما فضل الآداب على الشعر فهو ذروة انجازاتها واسهاماتها ، فلولا الآداب لتأخرت حركة الشعر الحر نضجا وتيارا عدة سنين ، وقد رعت الآداب كوكبته رعاية خاصة بجرأتها في تقديم نماذج التجديد ، مغامرة ان تتلقى الطعنات ، ويعد مفخرة للآداب ان تجمع ساحة الشعراء من المحيط الى الخليج جاعلة من هذا الشعر صوتا عربيا يساعد على الوحدة والتجميع . وفي هذا المجال جاءت نبضات قلب بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وخليل حاوي وكاظم جواد وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري وسعدى يوسف وشفيق الكمالي ومحمد جميل شلش ونزار قباني وادونيس وكمال نشأت وكامل ايوب وصلاح عبد الصبور ونجيب سرور وفاروق شوشة وكمال عمار وجيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن ومحيي الدين فارس ومحمد الفيتوري وسلمى الخضراء الجيوسي وناجي علوش ويوسف الخطيب وشوقي بغدادي وفدوى طوقان ، وجاءت نماذج الشعراء عاكسة نبض الوطن العربي وهو يخوض ميلادا جديدا .. غير ان الآداب وهي تخوض هذه الساحة اغفلت الفنية أحيانا لصالح المحتوى التحرري والاجتماعي ، ومن هنا نجد النماذج المتوسطة احيانا لدى محمود درويش وسميح القاسم وأمل دنقل : ومن هنا نجد النثر الرديء لدى شعراء جيل السبعينات بكل ما ينتجونه من غموض او مباشرة او خطابية .

واذا كانت الآداب قد مر عليها الان ربع قرن من الابداع فانني — والحديث عن النفس كله حرج — احتفل معها أيضا بربع قرن على دخولي الساحة الفكرية .. واذا سمح لي ان اتحدث عن نفسي قليلا فانني اقول ان رجاء النقاش وأنا كنا الاكثر عطاء في الآداب .. وما قدمته اترك للآخرين تقييمه .. غير ان ما حاولت ان افعله هو تقديم الفكر الجدلي بأشكاله المختلفة في مجالات الفلسفة والمنطق وعلم النفس والنقد الادبي والدراسة الجمالية .. فحاولت تقديم مشاكل الحرية والعلم والفلسفة وكتابات سارتر وجان فال وايشيا برلين ومشكلات الاغتراب والنقد الفلسفي ، وحاولت تقديم علم الجمال — وربما لاول مرة — في الوطن العربي بشكل نهجي ، وجاءت الدراسات عن علم الجمال في النظرية التعبيرية والماركسية والوجودية .. واذا كان لي ان اعتز بشيء فهو انني قد سبقت المفكرين الاوروبيين بالاهتمام بعلم الجمال في الفلسفة الوجودية . وخضت على صفحات الآداب معارك النقد النظرية والتطبيقية وعلى الساحة العربية بغربلة اعمال مثل بدر نشأت ونزار قباني ومحمود درويش ، واتاحت لي الآداب بابا ثابتا على صفحاتها « معارك نقدية » ، وكان الهدف : الالتقاء بالانسان العربي للتعلم منه والذي بدونه لن يكون لكتاباتنا اي معنى ، وجاءت معاركي من أجل الشعر الجديد والخصومات مع صلاح عن الصبور ورئيف خوري . وجاء الاهتمام بتقديم الجديد : الشعر الغزلي الفرعوني ، الشاعر الفرعوني يسبق اليوت وشكله التجديدي في « الارض الخراب» بثلاثة آلاف عام،وتقديم الاسس الجمالية لايقاعات حركة الشعر الجديد .. وجاء كرم الآداب بنشر نماذج شعرية لي لا تتفق وخطها العام حافلة بالمونولوج الداخلي والحوار العامي والتراكيب المصرية والبناء السمفوني على أساس عدة تفاعيل داخل القصيدة الواحدة .

غير أنه ، والآداب وأنا نحتفل بهذا التاريخ ، ليس أمامنا الا ان نقول : الانسان هو مستقبل الانسان .. ومن أجل هذا الانسان المعاصر وخاصة في وطننا العربي المحاصر بالتفاهة والزيف علينا ان نعلو على ماضينا لنقدم له الفكر الجديد : البنيوية ، اليسار الجديد ، فلسفات النفي ، مسارح التمرد ، شومسكي ، جرامشة ، ليفي شتراوس ، لينج ، سوسور ، المعاجم الضخمة عن علم الجمال والفلسفة والمنطق والفكر الاشتراكي والتراث العربي بزوايا معاصرة .

واذا كنت في اوائل الستينات قد ضقت بحركة الثقافة وما اعتراها من زيف فكتبت في يوم ما منديل وداع من مسافر أودع به الحياة الثقافية التي كانت قد بدأت تصاب بالزيف فانني ادركت بعد حين خطأ هذا الموقف ، فالاديب كما يقول سارتر لا يملك السكوت .

واذا كنت في أواخر السبعينات أكتب منديل محبة للآداب فهو على أساس ان يقرر الصديق سهيل ادريس صاحب الاثر الباقي « الحي اللاتيني » : هل ستستشرف الاداب — مجلة ودارا — آفاقا جديدة للثقافة مع تشكيل هيئة تحرير أصيلة لتقديم الجديد فتولد من جديد ، أم انها ستكتفي بالعيش على الماضي الجميل » ؟

القاهرة

مجاهد عبد المنعم مجاهد